المقاربة الاستشراقية في نقد مدونات التفسير-المفكر يوسف الصديق أنموذجا-

Orientalist Approach in criticizing commentators' books

-Youef Seddik as a model-

حنان برقرق

جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة -2- (الجزائر)، hanane.beregrag@univ-constantine2.dz

تاريخ الاستلام: 2024/03/14 تاريخ القبول: 2024/04/15 تاريخ النشر: 2024/07/31

ملخص:

يُعد الاستشراق بوصفه حركة فكرية قادها الغرب لاكتشاف الشرق، ووسيلة ناعمة لغزوه بعد الغزو العسكري، من بين المرجعيات الأولى التي إنبنت عليها المشاريع الحداثية في عالمنا العربي الإسلامي، حيث ركز المهتمون بالدراسات الشرقية على جوانب متعددة لهذه المجتمعات: دينية وسياسية واجتماعية وتاريخية، ووجهوا بذلك في أكثر أعمالهم الآراء والتصورات لما يخدم منطق إيديولوجياتهم.نحاول من خلال هذا البحث بيان الجوانب النقدية التي افترضها المستشرقون حول كتب التفسير، وكيف استند على أنقاضها المفكر التونسي "يوسف الصديق" في بناء تأويله للقرآن.أما النتائج المتوصل إليها فنذكر منها: أن الطرح الاستشراقي مثّل العتبات الأولى للفكر الحداثي العربي،حيث أثار مسائل وقضايا عديدة منها المشروعة والمخْتَلقَة بهدف التهويل والتشتيت، وقد دافع المفكر "يوسف الصديق"كغيره من المفكرين الحداثيين عن أطروحات المستشرقين وتبنى آراءهم ونسج على منوالهم نقدا لمدونات التفسير التي اعتبرها مجرد تراث ديني وجب تجاوزه.

كلمات مفتاحية: الاستشراق، التفسير، يوسف الصديق، الحداثة، التأويل.

Abstract:

Orientalism is an intellectual movement led by the West to discover the East, and it is a soft means to conquer it after the military invasion, it considered the first references on which Arab-Islamic modernist projects were affected. The Orientalists interested in oriental societies, and their work served only their ideologies. We seek from this research to explain the critical aspects assumed by the orientalists about exegesis's books, and how youssef seddik based on their criticism to establish his Quran's interpretation. This research came out with a number of results which are: firstly the Orientalist proposition represented the first thresholds of Arab modernist thought, Secondly: Youssef Seddik like other modernist thinker adopting the orientalist views and he weaves on their footsteps to provides a new interpretation of the Quran.

Keywords: Orientalism; Exegesis; Youssef Seddik; Modernity; Interpretation.

1. مقدمة:

ارتبطت فكرة الاستشراق والمستشرقين بالكُتّاب الغربيين الذين ألّفوا وكتبوا حول حضارة العرب والمسلمين وكذا ثقافتهم، منذ عهد آباء الكنيسة وحتى يومنا هذا.

وقد اختلفت الآراء والتصورات حولهم، فمنهم من اعتبرهم مجرد أقلام مأجورة قَدِمت لتدّعي بهتانا على العرب والمسلمين وتصورهم بأبشع التوصيفات العنصرية، وتبرز مكانة الغرب وتصادق على مركزيته، ومنهم من اعتبرهم مرحلة هامة في تاريخنا الفكري والثقافي لكونهم من نبهونا لإعادة قراءة تراثنا.

إذا، تتأتى القيمة المعرفية لهذه الورقة البحثية في كونها تعالج موضوعا لازال وإلى اليوم يطرح تساؤلات عديدة تدور رحاها حول الاستشراق، الذي كان ولا يزال يحرك القضايا والأفكار، لكن هذه المرة ليس بأياد وألسنة غربية بل بألسنة أبناء العروبة.

والإشكالية مثار اشتغالنا هي: إذا كانت كتب التفسير مادة ثرية لشرح السور القرآنية، وبيانها لماذا جعلها المستشرقون مدخلا لنقد التراث الديني؟ وكيف استخدم المفكر التونسي "يوسف الصديق" فرضياتهم في تجسيد مشروع تأويله الحداثي للقرآن؟

وعليه، فالمداخلة تهدف إلى بيان الجوانب النقدية التي افترضها المستشرقون حول كتب التفسير، وكيف استند على أنقاضها المفكر التونسي "يوسف الصديق" لبعث تأويله للقرآن، خاصة وأنه ينهل من آرائهم، ويتفق ويدافع عن تصوراتهم عبر مختلف كتبه .

أما المنهج المستخدم، فقد استندنا على المنهج التاريخي وفق مقاربة تضم مستويين: مستوى أوّل مفاهيمي؛ نحدد فيه المقصود من التفسير، الاستشراق، والحداثة. ومستوى تحليلي نناقش فيه الفرضيات التي انتهجها المستشرقون في نقدهم لكتب التفسير، وكيف تأثر بها المفكر يوسف الصديق في بعث مشروعه الحداثي حول تأويل القرآن.

2. إضاءة مفاهيمية:

قبل أن نستهل مناقشتنا وتحليلنا للمقاربة الاستشراقية وإسهامات مدارسها المختلفة حول نقد مدونات التفسير، وكذا منهج المفكر "يوسف الصديق" في تأويله الحداثي للقرآن، علينا فـــي بادئ الأمر وكخطوة لا غنى عنها أن نقف على جملة المفاهيم التالية: التفسير، الاستشراق، الحداثة؛ فبتوضيحها وتبيانها سنشرك القارئ شيئا فشيئا في الاشكالية مناط بحثنا.

1.2مفهوم التفسير:

يأخذ التفسير في القواميس اللغوية تعاريف وأقوال عديدة وتتفق جميعها في أنها كلمة تعني الإيضاح والبيان، ولما كانت مهمتنا لا رصف تعاريف بل تحليلها واستخراج المعاني الدقيقة والمفصلية منها، فإن ذلك يلزمنا ومن باب المنهجية العلمية أن نرجع ولو على الأقل إلى معجم لغوي لبيان ذلك.

وعليه، فإننا نجد معجم مقاييس اللغة لابن فارس؛ يعود بنا إلى اشتقاق كلمة التفسير والتي هي من مادة "(فسر)؛ الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدلُ على بيان الشيء وإيضاحه، ومن ذلك الفَسْرُ، يقال: فسّرت الشيء وفسرته" (زكريا، 1979، ص 504)، يُجمع أغلب المعاجم والقواميس اللغوية من بينها قاموس لسان العرب لـ "ابن منظور"، وقاموس المحيط لـ"ابن عباد"، والصحاح لـ"الجوهري" وغيرهم على أن مجمل ما تحمله كلمة التفسير من دلالات ومعان تجتمع في البيان والكشف والإيضاح.

وهناك من يُرجعنا إلى اشتقاقات أخرى للتفسير، فيحددونه في معنى التفسرة وهو العينة من البول يقوم عن طريقها الحكماء والأطباء بالكشف والاستدلال عن مرض الجسم من خلالها.

أما التفسير في العلوم الشرعية فإنه ينتمي إلى مجال هو علوم القرآن، حيث يهتم هذا العلم بالقرآن جملة وتفصيلا (نزوله، وحفظه، وترتيب آياته، وشرحها وتفسيرها) ومعرفة

ناسخها ومنسوخها؛ وتأسيسًا على ما تم ذكره، فإن التفسير يعني السعي الحثيث والاجتهاد للكشف عن المعنى الصحيح لما أراده الله في كتابه العزيز، ولم يظهر هذا العلم متأخرا بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم فسّر القرآن، وتبعه في ذلك الصحابة والتابعون ودواليك، فمنذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم والتابعون والفقهاء يجتهدون لإثراء مدونات التفسير كل بحسب قدراته وما استجد بعصره.

ويورد الزركشي تعريفا لعلم التفسير فيصفه بكونه "علم نزول الآية وسورتها، وأقاصيصها والإشارات النازلة فيها، ثم ترتيب مكيّها، ومدنّها ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها ومطلقها ومقيدها ومفسرها" (الزرقاني، 2021، ص 3)

وكثيرا ما يتم التمييز بين التفسير والتأويل، فهناك من يذهب للقول أن التفسير أعم من التأويل، وهناك من يجعل التفسير أمرًا شرعيا، في حين يكون التأويل أمرا عقليا؛ يتطلب ما يتطلبه من مناهج عقلية وتقنيات فلسفية.

وهناك الرأي عادة يتجه إلى اعتبار التفسير صرف اللفظ عن المعنى الظاهر الراجح إلى المعنى المرجوح؛ في حين يكون التأويل بحثٌ عن جملة المعاني المتوارية لا الواضحة؛ (فنجد هنا تفاسير المتصوفة والفلاسفة مثلا) ونظرا لما يحمله التأويل من حمولة من المعاني واختلافها وثرائها نال القائلين بها معارضة الفقهاء لتأويلاتهم والتحذير منها لأنها هرطقات، واستمر الأمر ذاته حتى عصرنا الحالي أين نجد التنكر التام والرفض الكلي للمشاريع التأويلية التي أقيمت حول النص القرآني سواء محاولات محمد أركون، أو نصر حامد أبو زيد، أو محمد شحرور....وغيرهم.

3. مفهوم الاستشراق:

مهما أُلّف حول الاستشراق يبقى هذا الموضوع يشغل حيزا معتبرا ضمن اهتمامات الكُتّاب العرب والمسلمين؛ نظير ما تركه من آثار عميقة على المستوى الفكري، وبالعودة إلى

كلمة الاستشراق كما حللها وفككها الباحث (مازن المطبقاني) نجدها كلمة مأخوذة من "الشرق، ثم أضيف لها ثلاثة حروف هي الألف والسين والتاء، ومعناها طلب الشرق وعلومه" (مطبقاني، 2011، ص1)إن الاستشراق وحتى في اللغات الأجنبية Orientation و Orientate، Orient نجده مرادفا لكلمات البحث، التوجيه، والهداية والرشاد عكس التيه، إن الاستشراق من حيث الاشتقاق اللغوي العربي وفي اللغات اللاتينية يعني بصفة عامة الاتجاه الجغرافي نحو الشرق والاشتغال حول علومه ومحاولة تفكيك البُنى الثقافية فيه بغية اكتشافه، كما لا ننسى المهمة الكبرى وهي السيطرة عليه.

وتذكر المصادر على اختلافها أن الاستشراق مفهوم ظهر لدى الغرب منذ قرنين من الزمان، وتم تداول مفهوم المستشرق أوّل مرة بحسب (أ.ج.آربري) عام 1638م، عام حيث ارتبطت في البداية مهمة المستشرق بمن يتقن اللغات الشرقية وهذا رأي المستشرق الألماني (رودي بارت 1901-1983).

ليتوسع مفهوم الاستشراق، ولم يرتبط باللغة والأدب بل اهتم المستشرقون بالجوانب الدينية والتاريخية والثقافية وغيرها، فنجد مثلا الباحث (زماني محمد حسن) في كتابه، الاستشراق والدراسات الإسلامية لدى الغربيين يُرجّح فكرة أن حركة الاستشراق في البداية اهتمت بجمع المعلومات الجغرافية وحتى التاريخية، وكذلك لغات الأمم الشرقية، إلا أنها شملت لاحقا بعد ذلك كل الجوانب الثقافية من أديان، ومعتقدات وعادات وتقاليد وآداب والفنون أيضا، وقد ركّزت كذلك على الأقوام وحضارات شعوب الشرق. وقد صار مفهوم المستشرق مفهوما يطلق على كل باحث اتسم بجمع هذه المعلومات أو جزء منها.

وقد ميّز المفكر الفلسطيني "إدوارد سعيد" في كتابه "الاستشراق" بين ثلاثة معاني لمفهوم الاستشراق "فالاستشراق أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين الشرق والغرب. والمعنى الأكاديمي، والمعاني الخيالية وهذا المعنى يستند على عناصر تاريخية ومادية أكثر" (إدوارد، 2006، ص45)، ومما تقدّم يمكننا ضبط تصور مفاهيمي للاستشراق

بالرجوع لفكرة "إدوارد سعيد" بكونه مؤسسة غربية تتعامل مع الشرق –كتابة عنه، وتأليفا- بغية السيطرة عليه.

وقد ظهرت حركة المستشرقين في كثير من البلدان لعل أهمها بريطانيا التي اتصلت بالشرق استعماريا واقتصاديا وعسكريا، واستشراق ألماني، وآخر فرنسي، ومنذ القرن الثامن عشر ازدهرت الدراسات الاستشراقية وازداد الاقبال عليها دراسة وتحصيلا، كما وظّفه التوسع الأوروبي في مشاريعه الاستعمارية.

3.2 مفهوم الحداثة:

لا يمكن تحديد وضبط مفهوم واضح ودقيق لمعنى الحداثة فلسفيا، وذلك لاختلاف الرؤى والأفكار حولها، إذ أن كل فيلسوف قدّم جملة من الخصائص المميزة لها، ويُرجّح (جيلسون) "أن الوعي بالحداثة يعود إلى العصر الوسيط،حيث كان المصطلح اللاتيني Saeculum Modernorum، وفي القرن السابع عشر قامت مشاجرة بين السلفيين والمحدثين، وقد نشأ اللفظ الفرنسي في القرن التاسع عشر عند شتوبريان (1849)" (مراد، 2007، ص269) هذا من الناحية التاريخية لنشأة المفهوم، أما من الناحية المفاهيمية فقد تباينت الآراء والتصورات حول الحداثة؛ حيث أورد المفكر المصري (عبد الوهاب المسيري) في كتابه المشترك مع (فتحي التريكي) والحامل لعنوان الحداثة وما بعد الحداثة، أن مفهوم التحديث مراد به التقدّم الإنماء والتطوّر، بمعنى أن أغلب التصورات الحالية للحداثة والتحديث مازالت تحمل نموذج التقدم ومعناه التحرر والتخلص من ثقل العادات والتقاليد والأفكار البالية والقديمة، والدعوة إلى النهوض والإبداع على جميع المستويات، والسعي الحثيث والمستمر إلى المستقبل.

ارتبطت الحداثة دوما بفكرة التجديد والانتقال من مرحلة إلى أخرى، وقد ذكر المفكر المغربي (طه عبد الرحمن) جملة التعاريف التي صيغت في سبيل تعريف الحداثة، حيث عرّفها بعضهم بكونها حقبة تاريخية متواصلة ابتدأت في "أقطار الغرب، ثم انتقلت آثارها إلى العالم

بأسره، مع اختلافهم في تحديد مدّة هذه الحقبة، ومنهم من قال أنها تمتد على مدى خمسة قرون كاملة، بدءا من القرن السادس عشر بفضل حركة النهضة وحركة الإصلاح الديني،ثم حركة الأنوار والثورة الفرنسية، وعرّفها بعضهم الآخر أنها النهوض بأسباب العقل والتقدّم والتحرر، وهناك من يقصرها على صفة واحدة قطع الصلة مع التراث" (طه، 2006، ص23)، وبالتالي طلب التجديد والسعي إليه، وهناك من اعتبرها مشروعا غير مكتمل وهذا موقف الفيلسوف (يورغن هابرماس)، وهناك من ربطها بالغرب فقط، إلا أن المفكر (محمد عابد الجابري) وفي كتابه التراث والحداثة اعتبرها ليست فكرة تعني رفض التراث، ولا القطيعة مع الماضي، بل إنها تعني التعامل مع التراث بطريقة نصل فيها إلى قراءة معاصرة له، وأضاف أنه لا توجد حداثة واحدة بل هناك حداثات وهي متداخلة ولا يمكن فصلها زمانيا، كما أن العرب لديهم حداثتهم وليست فكرة مقتصرة لدى الغرب كما يزعمون.

يمكننا أن نستنتج أن كثرة التعاريف واختلاف الدلالات لمفهوم الحداثة هو مؤشر واضح لدرجة تعقد هذا المفهوم من جهة، وكذا الحمولة الفكرية التي اكتسبها من جهة أخرى بفضل إسهامات الفلاسفة والمفكرين الذين أضافوا ولا يزالوا يضيفون دلالات جديدة له في كل مرة.

3. المستشرقون ونقد كتب التفسير:

سنطرح عبر هذا العنصر أهم من ارتبطت أسماؤهم بنقد كتب التفسير، ولن نلجأ إلى التقسيم حسب المدارس المتعارف عليها، بل سنختار نماذج، خاصة وأن المستشرقين انقسموا إلى فئات؛ "فئة لم تفهم النصوص فأخطأت، وفئة آثرت مآرب سياسية والتعصب للدين، وفئة أوتيت سعة العلم والإخلاص للبحث والإنصاف، وفئة عُنيت بالقرآن وعلومه" بحيث سنحدد في البداية (إبراهيم، 2013، ص 30)، وهذه الفئة الأخيرة هي التي تهمنا؛ أي الفئة التي اهتمت واشتغلت بعلوم القرآن، ولعل التفسير أهم علوم القرآن وأرفعها وأبلغها

شأنا في الحضارة الإسلامية، وكانت منافذ لانتقادات المستشرقين، والمؤولين الحداثيين للقرآن، ومنه أسسوا مختلف آرائهم حول القرآن.

1.3 آليات المستشرقين حول تفاسير القرآن:

لما كان الدافع الديني هو المحرك والمحرض الأوّل لظهور الاستشراق، فقد تمثلت الأهداف التي سعى لتحقيقها في ثلاثة اتجاهات رصدها الباحث رضوان عمر بن إبراهيم فيما يلي:

لما كان الدافع الديني هو المحرك والمحرض لظهور الاستشراق، فقد تمثلت الأهداف الـــــــتي سعى لتحقيقها في ثلاثة اتجاهات؛ أولا "محاربة الإسلام والبحث عن نقاط الضعف فيه، وإبرازها والزعم بأنه دين مأخوذ من النصرانية واليهودية، والانتقاص من قيمته، ثانيا حماية النصارى من الإسلام بحجب حقيقته عنهم، ثالثًا حملات التنصير بين المسلمين لتشكيكهم في دينهم" لم يكن الاستشراق إذا إلا كذبة اختلقها الغرب لتبرير تجاوزاتهم وتعصبهم اتجاه القرآن بشكل غير مباشر تم تفكيك وتحليل مدونات التفسير، والانتقاص منها وتبيان جوانب القصور فيها ليسهل عليهم لاحقا الاجتراء على القرآن الكريم، ويتهافت على منوالهم أغلب الحداثيين العرب.

وقد كانت كل هذه الدوافع خطط مبيّتة لدس السموم في دراساتهم حول القرآن، والتظاهر بأنها دراسات موضوعية وعلمية.

اهتم المستشرقون بترجمة الكتب الإسلامية إلى لغاتهم، وتسللوا عن طريق عدة نشاطات إلى قلب الحدث العلمي العربي الإسلامي من خلال عدة آليات والتي يمكن اختصارها في: "تأليف الكتب: حيث قام المستشرقون "بتأليف الكتب في جميع العلوم العربية والإسلامية والشرقية، و تحقيق كتب التراث: ، وإصدار الموسوعات العلمية، ورابعًا: صنع المعاجم اللغوية: منها المعاجم الدينية، واللغوية، والعامة، وخامسًا: ترجمة الكتب الإسلامية إلى لغاتهم" (إبراهيم،1992، ص49-52)غير أن هذه الكتب والموسوعات والسيرة التي ألفوها أو ترجموها لم تخلُ من دسهم فيها مقدارا من السم، حيث اتسمت هذه المؤلفات

بالذاتية لا الموضوعية في أغلبها، كما أن هدفها كان موجها للتقليل من الحضارة الإسلامية ومن النص القرآني عن طريق نفي واستبعاد وتبيان أخطاء مدونات التفسير.

ولم يتوقف سعيهم عند هذا الحد بل وظفوا أساليب أخرى؛ كإنشاء المطابع والصحف والمجلات، وكذا الجمعيات، والتسلل إلى المجامع العلمية، واستحداث المدارس والمعاهد وكراسي الجامعات التي عملت على التأثير على أجيال من طلبة المسلمين،وتغيير مفاهيمهم من الإسلام، بل والتشكيك في علوم المسلمين عبر المؤتمرات التي تعقد دوريا عبر مختلف الدول والجامعات.

2.3 نماذج لنقد التفسير:

سنحدد في هذا العنصر أهم النماذج التي عنت بدراسة ونقد التفسير:

أ.جولد تسهير(إِجَنَتْس) Goldziher Ignaz:

هو مستشرق مجري وُلد في الثاني والعشرين من شهر يونيو سنة 1850 في المجر، أمضى السنوات الأولى من دراسته في بودابست، ثم ذهب إلى برلين سنة 1869، ثم انتقل إلى جامعة ليبتسك، وفيها كان أستاذه في الدراسات الشرقية فليشر، وبعد نيله الدكتوراه وتعيينه مدرسا مساعدًا في جامعة بودابست، "أرسلته وزارة المعارف المجرية في بعثة دراسية إلى الخارج، فاشتغل في فيينا وليدن، وارتحل من بعد إلى الشرق فأقام بالقاهرة، ثم سافر إلى سوريا وفلسطين، من بين كتبه: محاضرات في الإسلام (1910)، و كتاب اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين (1920)، وتوفي جولدتسيهر عام (1921)" (صالح، 1995، ص115) بالإضافة لعديد الإنتاجات الفكرية الأخرى حول مذهب الظاهرية، وحول السجستاني، والغزالي... وغيرها من المؤلفات.

حاول "جولد تسهير" البحث في تفسير القرآن، ولم يبحث كغيره من المستشرقين إلى بيان أخطاء المفسرين، أو ترجيح رأي الواحد على رأي الآخر، وإنما كان يرمي إلى الكشف عن "((الاتجاهات)) التي ليست هذه الاختلافات إلا مظهرا خارجيا لها، جعله هذا ينظر إلى

النصوص نظرة زمانية لا مكانية، وأن هذه المذاهب في الفقه والتفسير ورواية الحديث والعقائد على أنه كالكائن الحي سواء بسواء" (الرحمن، 1993، ص198)، ينمو ويتطور ويكبر ثم يبدأ في الضمور والانحلال، وقد اعتمد في جملة مؤلفاته على منهج استدلالي ينُم على بصيرة ونظرة علمية رصينة.

وقد بيّن في كتابه اتجاهات التفسير عند المسلمين المنهج الذي استخدمه وهو المنهج التاريخي التحليلي للنصوص وهذا المنهج هو أهم وأكثر المناهج استخدامًا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ووظّفه هو وكثير من المستشرقين مثل فيلهاوزن (...) وينسب لجولدتسيهر أنه من أبدع مفاهيم التاريخ الإسلامي.

فبعدما وضّحنا أن هدف جولدتسيهر ليس التفسير ولا نقد المفسرين، بل تحديد اتجاهات التفسير التي ظهرت في العالم الإسلامي، وبالرغم من جملة الانتقادات التي تعرض لها كتابه هذا، إلا أنه يعد وبحسب العديد من المستشرقين من أمثال (جوينبل) Th. W. Juynboll أن العلم مدين بشكل كبير لما كتبه وتركه جولدتسير، ونجد أيضا الكثير والعديد من المستشرقين يستشهدون بآرائه، وذلك لما يحتله كتابه حول اتجاهات المفسرين من تأثير بالغ على جل المستشرقين الذين جاؤوا بعده، خاصة وأنه كان لا يقدّم رأي صريح أو تفسير واضح ولكنه كان يقوم على إقامة "موازنات مع ما في الإسلام من مواد تاريخية أو تشريعية مع معرفته بالديانتين اليهودية والمسيحية، ودراسته للكتب الدينية المختلفة مثل التوراة والإنجيل والتلمود" (إيجانس، 2013، ص46)، غير أن هذا جعله يقع في مغالطات وينسب كل ما يجده من عبادات إما لليهودية، أو المسيحية، فمن يقرأ كتاباته يصفه بالتحيز ليهوديته؛ فالقرآن كان جامعا ومتجاوزا ومصححا للشرائع السماوية السابقة، وليس كما يرى جولدتسيهر كتاب يقتبس مما سبقه.

وفي كتابه السابق اتجاهات التفسير، قسّم جولدتسيهر التفسير إلى ست مراحل متتبعا الترتيب الكرونولوجي؛ حيث اتسمت المرحلة الأولى حول تاريخ النص واختلاف القراءات،

والمرحلة الثانية ظهور الإسرائيليات واستخدام التفسير بالمأثور (تفسير القرآن بالقرآن) وبالرأي (اي اعتماد على العقل)، أما المرحلة الثالثة فقد تطرق إلى العقائد والفرق كالمعتزلة أما المرحلة الرابعة فتطرق إلى التفسير على ضوء التصوف، في حين تناول في المرحلة الخامسة التفسير لدى الشيعة والخوارج، وفي المرحلة السادسة الأخيرة فتحدث عن التفسير في ضوء التمدن الإسلامي.

ولعل الانتقاد الذي وُجّه إلى جولدتسيهر حول مقاربته في الاتجاهات التفسير، الذاتية التي غلبت على آرائه وتصوراته، وكذا المغالطات التاريخية حيث خلط بين الإمامية والإسماعيلية، وكذا جعل التطور التاريخي للتفسير مقترنا بالنشاط العقدي داخل الكنيسة والفرق المسيحية.

ب. روجي بلاشيرRégis Blachère :

رجي بلاشير Régis Blachère: وُلد رجي بلاشير في "30 يونيو 1900، في ضاحية مونروج (باريس)، قضى دراسته الثانوية في مدرسة فرنسية بالمغرب، ثم حصل على الليسانس من الجزائر، ليعود إلى الرباط في معهد الدراسات العليا، ثم حصل على الدكتوراه من جامعة باريس في 1936، ثم تقلّد منصب كرسي اللغة والأدب العربيين في السوربون إلى حين تقاعده 1970، ليُصبح مدير معهد الدراسات الإسلامية، توفي في السابع من شهر أغسطس 1973" (الرحمن، 1993، ص127) ومن أهم كتبه نذكر: تاريخ الأدب العربي ، ترجمة القرآن إلى اللغة الفرنسية، وكتاب يلخص فيه أبحاث المستشرقين الذين كتبوا على حياة النبي، وغيرها من الكتب التي اختصت بالتراث الإسلامي.

كانت منهجية "بلاشير" الاستشراقية تقوم على التركيز على اللغات التي كانت موجودة في شبه الجزيرة العربية، وقد طرح ذلك في كتابه "تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي" حيث عرض وصفا لميزات الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية معتبرا "الأسرة هي الخلية الاجتماعية عند بدو الجزيرة، وهي تخضع لنظام أبوي، والاعتراف بجد موحد هو مؤسس الرهط، والقبيلة هي

مجموع أرهاط وتفرعات يجمعهم تحت اسم واحد، ونتيجة للهجرة توسعت اللغة" (ريجيس،، 1998، ص25)، وهو بهذا حاول تبرير اختلاف اللهجات الموجودة في شبه الجزيرة العربية، وهذا ما ذكره العديد من الباحثين إذ أن هناك تباين في اللغة صوتيا بين الشمال والجنوب، حيث تخالف لغة اليمن لغة الحجاز، ولهذا السبب فقد نزل القرآن على لهجات عديدة وليس بلهجة قريش فقط.

يعتقد بلاشير أن القرآن لو نزل بلهجة واحدة (لهجة قريش) فقط لما أحدث التأثير الذي أحدثه، فقد نزل القرآن على سبعة أحرف: أحرف يعني لهجات حتى يُفك نزاع القراءات، ولا يدعي أحد أنه يمتلك القراءة الأصح.

أشار بلاشير في كتاب: القرآن ترجمة من العربية إلى ضرورة تقسيم السور القرآنية إلى مجموعات حتى نتمكن من قراءتها، فالسور القرآنية حسب تصوّره مصنّفة إلى أربع سلاسل، وكل سلسلة مرتبطة بأربعة مراحل متتالية لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، حيث تناولت المجموعة الأولى "الدعوة إلى التطهر، الإحسان، والمثابرة،وعالجت المجموعة الثانية مواضيع: مثل يوم القيامة، والبعث بعد الموت، الحساب والعقاب، الجنة والنار، أما المجموعة الثالثة فقد احتوت السور التي تتحدث عن تطور نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وأدلة عظمة الله، وفي المجموعة الرابعة: نجد خمس سور منقسمة حسب محتواها: وهي نصوص قصيرة"(Blachère, 1966, P12) إن في سعي المستشرق الفرنسي "بلاشير" حول ترجمة القرآن، ونقله إلى الفرنسية تجربة لا تخلو من المخاطرة وكذا النقد، فمن بين إيجابياتها تحريك معاني النص القرآني وإزاحته للآخر بغية التعريف به وإشراكه في الفهم، وخلق مساحة لاحترام الخصوصيات الثقافية للمجتمعات الإسلامية والعربية

أمّا من سلبياتها فنذكر أن "بلاشير" في كتابه سابق الذكر-القرآن ترجمة من العربية- لم يلتزم لا بالضوابط اللغوية ولا التاريخية، بل شكك في ترتيب سور القرآن الكريم، وكانت ترجمته حرفية هذا ما استنتجناه عند قراءتنا لكتابه.

وفي سياق آخر، انتقد بلاشير في كتابه (القرآن نزوله، تدوينه ترجمته وتأثيره)، عملية الحفظ والتكرار التي مارسها المسلمون منذ نزول القرآن؛ وشنّع عليهم حصر الكتاب في مجرد التلاوة التي برأيه ليست كافية لإحداث الفهم والتغيير المرجو، حيث ستبقى دائما هناك إشكالية حول فهم القرآن، فلا مجال لأن نبقى في ذات الطريقة التربوية المتبعة والزمن يتغير.

ج.جاك بيرك Jacques. Berque :

جاك بيرك: J. Berque: (1910-1995) هو مستشرق وعالم اجتماع فرنسي، "وُلد بالجزائر، وبعد تخرجه من باريس نزل بالمغرب، ثم عُيّن مديرًا لقسم البحوث الفنية والتجريبية بمصر، ثم مشرفًا على مركز الدراسات العربية بلبنان، ثم أستاذ كرسي التاريخ في معهد بفرنسا" (يحيى، 2004، ص321) من بين أهم مؤلفاته نذكر على سبيل المثال لا الحصر: ، الإسلام من الأمس إلى الغد، ابن رشد والأضداد، وثائق عن التاريخ المغربي الاجتماعي وكتاب دراسات في تاريخ الريف المغربي، وله أيضا الإغريق وعلماء الكيمياء العرب، نوازل مازونة وغيرها من المصنفات.

كغيره من المستشرقين، عمد المستشرق الفرنسي "جاك بيرك" على ترجمة القرآن فخصص لذلك كتابه Le Coran Essai de traduction القرآن محاولة للترجمة، وقد وصف عمله هذا بكونها التقاء مباشر مع النص القرآني، وذلك أملاً منه أن "يعيد تأسيس الأصول، فلا يمكن برأيه إلغاء جمال التفسير الإسلامي، إذ أن تعليقاتنا على النصوص متشاركة، وعندما نتّبع هذه التفاسير الثرية والغنية بالمعاني، فإننا نتوجس الوقوع في المبالغة أو الانتقائية التاريخية التي وقع فيها المفسرين" (Berque,p13، 1995) فقبل أن يبدأ "بيرك" مهمة تفسير القرآن، بيّن الخطوط العريضة التي اشتغل عليها، حيث استهل مقاربته في بادئ الأمر في أنه يتعامل تعاملا مباشرا مع النص القرآني، ويستند ويرجع أيضا إلى التفاسير القديمة، ويعقد مقارنة استنتج من خلالها أن هذه الأخيرة –التفاسير- لها جمال خاص، لكنها وقعت في الانتقائية

التاريخية والمبالغة، لذلك وتجنبا لهذا الخطأ، نجده ما يعتمد كثيرا في تفسيره على الكلمات القريبة والمفهومة من قواميس اللغة الفرنسية كقاموس Le Robert.

غير أن مهمته لم ترق لأن يفسّر بل قارب فقط بين الكلمات العربية والفرنسية، وعمد إلى ترجمتها، ولهذا لا يمكن أن نسمي عمله تفسيرا، بل مجرد ترجمة وفق فهمه الخاص، وهو بهذا يشترك مع غيره من المستشرقين في الدعوة إلى تأويل القرآن وإعطاءه دلالات جديدة، وقد ذكر هذا في كتابه (إعادة قراءة القرآن) حيث اعتبر القرآن مساحة لغوية؛ وأن التفاسير لا يجب أن تبقى ثابتة في عالم يتغير،وأن النص القرآني نص خصب مولّد لعديد المعاني.

إن محاولة "بيرك" لم تنطلق من النص باعتباره ذلك الوحي الروحاني متمثلا في اللغة العربية، بل عمد على تشيء القرآن سوسيوثقافيا، وجعل الإسلام عبر مختلف كتاباته مجرد مؤسسة طقوسية تلقن الأفراد بما يجب أن يقوموا به.

وبالرغم من الكتب والآثار العلمية التي تركها "بيرك" إلا أن مُحاولته وُصفت بالذاتية، وبغير المُجدية على حد تعبير الباحث "بوشعيب راغين" خاصة فيما تعلق بترجمته للقرآن حيث اعتبر محاولته دليل قاطع على جهل بيرك بالنص القرآني وبكتب التفسير، حيث تميزت ترجمته بالشذرية حيث يقتطع الآيات فيأخذ ما يناسب تصوراته ويُعرض عما لا يراه مناسبا.

4. يوسف الصديق وتأثره بآراء المستشرقين:

المفكر التونسي يوسف الصديق؛ هو مفكر وأنثوبولوجي معاصر وُلد بـ"توزر من بلاد الجريد التونسية سنة 1943م. فيلسوف كاتب و مفكّر ومتخصص في أنثروبولوجيا الأديان، درس ودرّس في جامعة السربون بباريس" (يوسف، 2015، ص1) صدر له عديد المنشورات من بينها: هل قرأنا القرآن أم على قلوب أقفالها ؟ تونس بعد ثلاث سنوات ...الثورة المنقوصة، كما له عدة كتابات أهمها من هم الهمج؟ على خطى الإسلام، القرآن قراءة أخرى ترجمة أخرى.

في البداية حدد المفكر يوسف الصديق أن طريقة الجمع التي قام بها الخليفة الثالث تميّزت بالانتقائية؛ حيث مارست المؤسسة التفسيرية تعسفا في عملية جمع القرآن حتى "انحصر القرآن في معنى تعبدي ضيّق ليؤول إلى مدلول التكرار(...) وقد استُخدم الفرز الضبابي برأي كل المفسرين –الذي قُسمت من خلاله السور إلى مكية ومدنية كمعيار اعتمدته هيأة الجمع للتحقق من صدق شهادات حفظة المقاطع القرآنية بحكم معاشرتهم للنبي" (يوسف، هل قرأنا القرآن، أم على قلوب أقفالها؟، 2013، ص36،93) وهي فكرة تأثر بها من المستشرق جولدتسيهر، الذي عدّ عملية الجمع التي قام بها الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه غير موفقة، حيث يعتقد في كتابه (مذاهب التفسير) أن هذا النص **الأصلي المفترض** الذي يجسد كلام الله في اللوح المحفوظ قد عرض منذ القدم قراءات متنوعة ومختلفة كما أن ما بين هذه القراءات فكرة التسامح، وكأن لسان حاله يقول: لماذا تم تجميع هذه القراءات في نسخة واحدة؟ في حين أن هذه القراءات تُتقبّل جميعا، وأن التسامح قائم بينها.

إن الاستناد على نقطة فارقة هي القراءات، لها مسوّغ واحد ألا وهو زعم الاختلاف بينها ومنه إمكانية تعرّض القرآن للزيادة والنقصان، واختلافها مؤداه التناقض، ولذلك كثيرا ما أُعتبر جولد تسهير بعدائه للإسلام، وبخطورة كتاباته على القرّاء، خاصة وأنه يبث دعواه الباطلة بشكل مبطن، ونجد المفكر يوسف الصديق قد تشبّث بهذه الفكرة ودافع عنها في كتابه (هل قرأنا القرآن أم على قلوب أقفالها؟)

أما الفكرة الثانية التي تأثر بها المفكر "يوسف الصديق" فقد اقتبسها من المستشرق (بلاشير) حول القراءة؛ حيث يشترك معه في الدعوة إلى **القراءة لا التلاوة**، إذ يذهب (بلاشير) إلى القول أن التدخل والتوسط الذي استحدثته مؤسسة التفسير بين القارئ والقرآن من خلال الفقهاء الذين يزوّدون المسلمين بفهم معيّن، لم يترك الحرية لا لطرح أسئلة مُلّحة، أو رصد فهوم جديدة، بل عمل على لجم النص القرآني وتقييده، وهي

الفكرة ذاتها التي ذكرها المفكر يوسف الصديق في كتابه سابق الذكر، وكتاب: القرآن قراءة أخرى ترجمة أخرى.

وقد استلهم "يوسف الصديق" من مؤلفات "جاك بيرك" هو الآخر عدة أفكار، خاصة من كتابيه "إعادة قراءة القرآن" و"اللغة العربية في الحاضر" والتي من بينها: اشتراكهما في القول **بالشذرة**، حيث صادر بيرك على أن تكون هذه الوحدة متكاملة، ظاهرة هي جديرة لا محالة بدراسة حديثة، تستجيب لموضوعية العلوم الاجتماعية والإنسانية فالقرآن بحسبهما نزل متفرقا في شكل وحدات صغيرة، متنوعة شكلت وحدات كبرى، وقد قامت جهات وصية بطريقة إيديولوجية بترتيبه وحذف وإضافة ما يُناسب تصوراتها، إن هذه الآراء التي قدّمها كل من (جاك بيرك) و(يوسف الصديق) نأت عن الاشتغال الفعلي بالقرآن كآيات وسور ومفردات، وانصرفت إلى البحث عن خلفيات الجمع والترتيب، ولذلك يركّز "يوسف الصديق" وكما سبقت الإشارة على الطريقة التي جُمع بها القرآن، والتي اعتبرها عملية غامضة, اتسمت بالسرعة والتشويش.

5.خاتمة:

بعد هذه اللمحة المختصرة حول المستشرقين، وطرقهم في نقد مدونات التفسير يمكن إجمالا الخروج بالنتائج التالية:

تجلّت مهمة المفسرين منذ عقود في إيجاد معان للنص توافقه ولا تحيد عنه، في حين كانت مهمة المستشرقين، وحتى القراء الحداثيين هي استيراد معان من خارج النص وفرضها عليه.

تناول المستشرقون كل ماله علاقة بالحضارة الإسلامية من ثقافة وفكر وطب وعلوم، غير أن تركيزهم على التفسير كان ضعيفا، وكان آخر اهتمامهم مما جعلهم يقعون في مغالطات سواء بقصدهم أم لا، وقد كان هدفهم فيما تعلق بالقرآن هو جعله نصا

اقتبس من الديانات السابقة، خاصة وأن أغلب المستشرقين يتجه اتجاها متعصبا حول الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بنفي نبوته، ونفي الوحي.

تأثر المفكر "يوسف الصديق" بكتابات المستشرقين، وقد وظّف أفكارهم ضمن مؤلفاته، ومن بين هذه الأفكار نذكر:

قدّم المستشرقون نقدا لمدونات التفسير، باعتبارها لم تقدم جديدا، فوقعت في التكرار، فكانت دعوة المفكر "يوسف الصديق" لبعث تأويلات وقراءات جديدة للقرآن لتجنب التكرار.

يقف المفكر "يوسف الصديق" موقف التلميذ أمام المستشرقين فيأخذ عنهم كل شيء دون تمحيص ولا نقد، حيث نفى الوحي عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، واعتبر التفاسير مجرد تراث علينا تجاوزه.

قدّم المفكر "يوسف الصديق" ترجمة للقرآن وفقا لأسلوب ارتآه هو، فأعاد ترتيب السور والآيات وأسمى الآيات بالشذرات Fragment وهذه الفكرة أخذها عن "جاك بيرك".

ومما سبق يمكن القول إجمالا: أن عمل المستشرقين، وعمل القراء الحداثيين للقرآن -من أمثال محمد أركون، أو محمد شحرور، أو حتى يوسف الصديق- يمثل مجالا للدراسات والبحث الفلسفي المعاصر الجاد، يتوجب علينا أمر وهو: مراجعة ونقد كافة تلك المساهمات حتى لا نقع في فخ الرفض لأجل الرفض، أو التسليم الجزافي بتلك الآراء خاصة أنه هناك من المستشرقين من أنصف الحضارة الإسلامية وأبان فضلها كالمستشرقة هونكه.

6-قائمة المراجع:

المؤلفات:

بدوي، عبد الرحمن. (1993). *موسوعة المستشرقين* (الإصدار 3). لبنان: دار العلم للملايين.

بلاشير، ريجيس،. (1998). *تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي* (الإصدار 1). (إبراهيم كيلاني، المترجمون) سوريا: دار الفكر.

جولدتسهير، إيجانس. (2013). *مذاهب التفسير الإسلامي* (الإصدار 1). (عبد الحليم النجار، المترجمون) مصر: المركز القومي للترجمة.

حمدان، عبد الحميد صالح. (1995). *طبقات المستشرقين* (الإصدار 1). مصر: مكتبة مدبولي.

رضوان، عمر ابن إبراهيم. (1992). *آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره دراسة ونقد* (الإصدار 1). السعودية: دار طيبة.

سعيد، إدوارد. (2006). *الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق* (الإصدار 1). (محمد عناني، المترجمون) مصر: رؤية للنشر والتوزيع.

الصديق، يوسف. (2015). *الآخر و الآخرون في القرآن* (الإصدار 2). تونس: دار التنوير للطباعة و النشر،.

الصديق، يوسف. (2013). *هل قرأنا القرآن، أم على قلوب أقفالها؟* (الإصدار 1). (منذر ساسي، المترجمون) تونس: دار محمد علي.

عبد الرحمن، طه. (2006). *روح الحداثة- المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية* (الإصدار 1). المغرب: المركز الثقافي العربي.

ابن فارس، أبي الحسين أحمد بن زكريا. (1979). *معجم مقاييس اللغة* (الإصدار ط1، المجلد ج4). الكويت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

محمد عبد العظيم الزرقاني. (2021). *مناهل العرفان في علوم القرآن* (الإصدار 1، المجلد 2). مصر: دار السلام.

مراد، يحيى. (2004). *معجم أسماء المستشرقين* (الإصدار ط1). لبنان: دار الكتب العلمية.

النملة، علي بن إبراهيم. (2013). *كُنه الاستشراق: المفهوم- الأهداف-الارتباطات* (الإصدار 3). السعودية: فهرسة الملك فهد الوطنية أثناء النشر.

وهبه، مراد. (2007). *المعجم الفلسفي* (الإصدار ط1). مصر: دار قباء الحديثة للنشر والتوزيع.

Jacques Berque .(1995) .*Le Coran Essai de tradiction par Jacque Berque*1 (الإصدار er .(France :Albin Michel.

Régis Blachère .(1966) .*Le Coran (al- Qorân), traduit de l'arabe* . Paris ،France: G.P. Maissonneuve & Larose, Editeurs.

المقالات:

مطبقاني مازن بن صلاح. (2011). *الاستشراق*. تاريخ الاسترداد 11 2, 2023، من جامع الكتب الاسلامية:

&page=3&https://ketabonline.com/ar/books/13567/read?part=1
index=4315816